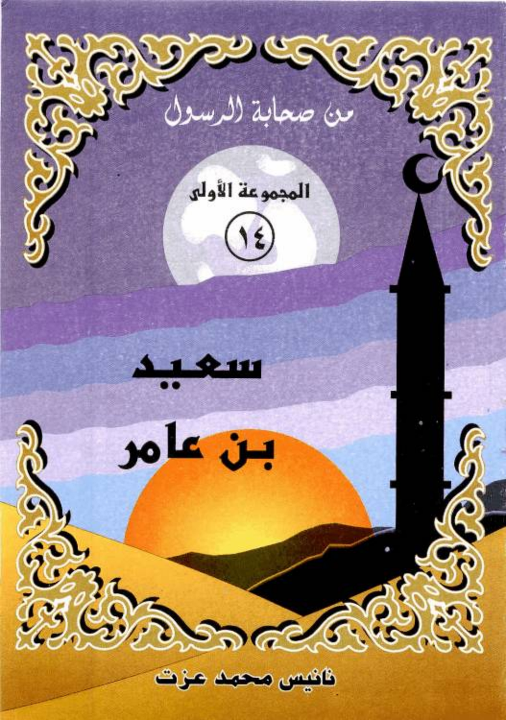

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
١٤
سعيد
بن عامر
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ١٤

سعيد بن عامر

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

سعيد بن عامر

زينَةُ وفَـرَحُ طِفلَتـانِ لَطيفَتـانِ تُحبّـانِ اللّعِـب ، كمـا تُحبّان النَّظافَةَ والنِّظام ، فهُما تَعتَنِيان بمَلابِسِـهما ، فهى نَظيفَـةٌ دائِمـا ، ولَعِبُهُمـا مُنظَّـمٌ مُرتَّـب . ولذلـك كـانَ والِداهُما سَعيدَيْنِ بسُلوكِ الطِّفلَتَين ، لَولا صِفَـةٌ واحِـدَةٌ تَعيبهُما ، هى الكِبْرُ والاسْتِعلاءُ على النّاس .

وفى أحدِ الأَيّام ، نَزلَتْ زينَةُ وفَـرَحُ لتَلعَبا فـى حَديقَـةِ الـمَنزِلِ مـعَ صَديقاتِهمـا ، وانْدَمَجـنَ جَميعًـا فـى اللّعِـبِ والمَرَح ، وفيما هنَّ يَلْعَبْن ، أقبلَـتْ سَـيِّدَةُ ابنَـةُ العَـمِّ أحمـد البَوّاب ، وطَلَبَتْ أن تَلعَبَ مَعَهُـن . فانْسَـحَبتْ الطِّفلَتـان زينَةُ وفَرَحُ فى هُـدوء ، وصَعِدَتـا إلى شُـقَّتِهن . فسَـأَلَتهُما أُمُّهما : ماذا جـاءَ بِكمـا ، ولِمـاذا تَركْتُمـا صَديقاتِكُمـا ؟ هـل تَعِبْتُمـا مـن اللّعِـب ، أو تَشـعُرانِ بـالجوعِ فـتُريدانِ الغَداء ؟

ردَّتْ زينَـةُ فـى كِبْرٍ واسْتِعلاء : لا هَـذا ولا ذاك ، ولَكِنَّ سَيِّدَةَ انْضَمَّت إلَينـا فـى اللَّعِـب ، فَخشـينا علَـى مَلابِسِنا أن تَتّسخ .

استاءَت أُمُّهما وقالَت : وما العَيبُ فى سَـيِّدَة ، ومـا عَلاقَتُهـا بمَلابسِـكُما ؟ فسَيِّدَةُ طِفلَـةٌ عَزيــزَةُ النَّفْــس ، تَحرِصُ على نَظافَةِ مَلابِسِها دائما .

قالتْ فَرَح : ولكِنّها فَقيرَة ، يَظهَرُ البُؤسُ عَلَيها .

غَضِبَتْ أُمُّها وقـالَت : الفَقـرُ لَيـسَ عَيْبًـا يـا ابْنَتـى ، ولَيسَ مَعنَى أنّكِ أكثَرُ مِنها مالا ، أنّكِ أَفضَلُ مِنها ؟

قالَتْ فَرَحُ غاضِبَة : كيفَ تَقولين يا أُمّى أَنّهـا أَفضَـلُ مِنّى ؟

قالَت أُمُّها : أَلم تَسْمَعى حَديثَ النَّبىِّ صلّى اللّهُ عَليـهِ وسَلّم ، الّذى يَقولُ فيه : (إنَّ اللّهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم

ولا إلَى أجْسادِكُم ، ولكن يَنظُرُ إلَى قُلوبكُم) .

كمَا قالَ كذَلِك : (يَجمَعُ اللّهُ عزَّ وجَلَّ النّاسَ لِلحِساب ، فَيَجيءُ فُقراءُ المُؤْمِنين ، يَزِفّونَ كما يَزِفُّ الحَمام ، فَيُقالُ لهم : قِفوا لِلحِساب . فيَقولون : ما كانَ لنا شَيءٌ نُحاسَبُ عَلَيه ، فيَقولُ اللّه : صَدَقَ عِبادى . فيَدْخُلون الجَنّةَ قبلَ النّاس) .

لا تَتخَلّى زينَةُ عن تَكبُّرِها وتَقولُ مُستَنكِرَة : سَيِّدَةُ هذه تَدخُلُ الجَنّةَ قَبْلى ؟ يا لَلمَهزَلَة !

اشتَدَّ غَضبُ أُمِّها وقالَت : كفَى يا زينَة ، فحَديثُكِ يَبعَثُ على الاشْمِئزاز . ألَمْ تَعلَمى أنَّ أحَدَ صَحابَةِ الرَّسول صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، وهو سَعيدُ بنُ عامِرٍ كانتْ تَأْتيهِ الأَمْوال ، فيَتخَلّصُ مِنها بأَسْرعِ ما يُمكِن ، لِيُحشَرَ معَ الفُقَراء ؟

قالتْ فَرَح : كيفَ يا أُمّى ؟ احْكى لَنا حِكايَته .

قالتْ أُمُّها : كانَ سَعيدُ بنُ عامِرٍ ــ قبلَ إسْلامِه ــ يَقِفُ مع الآلافِ الّذينَ تَجمَّعوا ليُشاهِدوا مَظاهِرَ إعْدامِ الأَسيرِ خَبيبِ بْنِ عَدِيّ ، الّذى قاسَى من آلامِ التّعذيبِ ما لا يحتَمِلُه بَشَر . فقابَلَ ذلك بصُمودٍ وثَباتٍ يدُلاّن على إيمانٍ راسِخ ، وعَقيدةٍ لا تَتزَعْزَع . ورأى سَعيدُ بنُ عامِرٍ خَبيبًا وهو يُصَلّى رَكعَتَيْنِ لِلّهِ قبلَ مَوتِه ، ويَقولُ صامِدًا : « واللّهِ ما أُحِبُّ أن أكونَ آمِنًا فى أهلى ووَلَدى ، وأنَّ مُحمَّدًا يوخَزُ بشَوْكة » .

ويُؤثّرُ المَشهَدُ فى الفَتَى اليافِع ، ليُطارِدَهُ فى النّومِ واليَقَظَة ، ويُفكّرُ فيهِ كَثيرا ، حتّى يَصِلَ أخيرًا إلى برِّ الأمان ، ويُعلِنَ إسْلامَه .

وهاجَرَ سعيدُ بنُ عامِرٍ إلى المَدينَة ، وشارَكَ فى غَزوَةِ خَيْبَر وما بَعدَها من غَزَوات .

وفي عَهدِ الخَليفَةِ عُمَـرَ بـنِ الخَطّـاب ، أرسَـلَه والِيًـا علَى الشّام ، وكانَتِ الشّامُ غَنِيَّةً بـالثَّرواتِ والخَيْرات ، فيهـا الأَنهـارُ الجاريَـة ، والمَزارِعُ الشّاسِعَة ، والخُضـرَةُ الوارِفَة ، والتِّجارَةُ الرّائِجَة .

قالت زينَةُ في اسْتِنْكار : واليًا على كُـلِّ تلـك النِّعَـم وفَقير؟ أنا لا أَكادُ أُصَدِّق .

قالَتْ أُمُّها : نَعَم يا زينَةُ فَقير . اسْمَعي لِتَعْرِفي كيـفَ كانتْ حَياتُه ، وماذا كانَ يَملِك .

حاوَلَ سَعيدُ بن عامرٍ أن يتملَّـصَ ويَرفُـضَ الوِلايَـة ، وقالَ إنّها فِتنَةٌ تُلهيهِ عَنِ العِبـادَة ، ولكـنَّ الخَليفَـةَ عُمَـرَ رفض عُذرَه ، وقال : كيفَ تُريدونَني أميرًا عَليكُم ، من غيرِ أن تُعاوِنوني على الإمارَة ؟

وقَبِـلَ سَـعيدٌ مُضْطَرًا ، واصْطَحَـبَ معَـهُ عَروسَـهُ وكـانتْ تتمَتَّعُ بجَمـالٍ فَتّـان . وأعْطـاهُ الخَليفَـةُ بَعـضَ

الأموال لِيشترِىَ منها ما يَلزَمُهُما من أثاثٍ ومَلابس .

وفى الشّام تقترِحُ عليه زوجتُه أن يَشتريا ما يَلزمُهُما من أثاثٍ ويدَّخرا الباقى . فيَعرضُ سَعيدٌ عَليها أن يَشتريا لَوازِمَهُما الضَّروريَّة فقط ، ويَستثمِرا الباقى فى التّجارَة .

قالت زينة : آه ! ها هُوذا تأثّر بالنّعمِ الّتى تُحيطُ به ، وفكَّر فى جَنْى المَكاسِب !

ابتَسمتْ أُمُّها وقالتْ : فلنَر ! أخَذَ سَعيدٌ المَبلَغَ المُتَبقّى لِيَستَثمِرَهُ فى التّجارَة .

وكلّما سَألَتْه زَوجُهُ عن الأمْوال والمَكاسِب ، طَمأنَها قائلاً لها : إنّها فى ازْدِياد . إلَى أن كانَ عِندَهُما فى أحَدِ الأيّام زائِرٌ قَريبٌ لَهُما ، يَعرفُ حِكايَةَ الأمْوال . وسَألَتْه الزَّوجَةُ عن حال التّجارَة ، فضَحِكَ الضَّيْفُ مِمّا أثارَ الشَّكَّ فى نَفْسِ الزَّوجَة ، وأصَرَّتْ أن تَعرفَ الحَقيقَة . فأخبرَها الضَّيفُ أنَّ سَعيدًا قد تَصدَّقَ بكُلِّ المالِ من أوَّلِ يَوْم .

فغَضِبَتِ الزَّوجَة ، وبكَتْ على حالِها ، فلا هِيَ اشْتَرتْ بالمالِ ما تَحتاجُ إلَيه ، ولا هِي ادَّخَرَتْه لِينْفَعَها .

وقالَ لها سَعيد : اعْلَمي يا زَوجَتي العَزيزَة ، أنَّ في الجَنَّةِ من الحورِ العينِ والخَيْراتِ الحِسان ، ما لَو أطَلَّت واحِدَةٌ مِنهُنَّ على الأَرْض ، لأَضاءَتْها جَميعا ، فلن أُضَحِّيَ بِهِنَّ من أجْلِك .

فسَكَتَتْ زَوجُه ، وعَرفَت أن لا مَفَرَّ لها من السَّيرِ معه في طَريقِ الزُّهدِ والتَّقَشُّف .

قالَتْ فَرَح : ولِماذا قالَ لها إنَّه يُتاجِرُ بالمال ؟

قالَت أُمُّها : إنَّهُ تاجَرَ بالمـالِ فِعْلا ، ولكنْ معَ اللّهِ تَعالَى .

اذْكُرِي الآيَةَ الكَريمَةَ الَّتي يَقولُ اللّهُ فِيها : ﴿ مَثَلُ الَّذينَ يُنفِقونَ أمْوالَهُم في سَبيلِ اللّه ، كمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَت

سَبعَ سَنابِلَ فى كُـلِّ سُـنبُلَةٍ مِائَـةُ حَبَّـة ، واللّـهُ يُضـاعِفُ لِمَنْ يَشاء ، واللّهُ واسِعٌ عَليم » .

* * *

وطلبَ الخَليفَةُ عُمرُ بنُ الخَطّابِ مـن بَعـضِ رِجالِـه ، أن يَكتُبوا له أسْماءَ الفُقَراء بالشّام ، ليُعْطِيَهم من بَيـتِ المال . وعِندَما قَرأَ الخَليفَةُ اسْمَ سَـعيدِ بـنِ عـامِرٍ ضِمْـنَ أسْماءِ الفُقَراء ، سَأَلَ :

ـ ومن سَعيدُ بنُ عامِرٍ هَذا ؟

قالوا : أميرُنا .

فاسْتَغربَ الخَليفَةُ وقال : أميرُكُم فَقير ؟

قالوا : نَعم ، وواللّهِ إنّه لتَمُرُّ عَليـهِ الأيّـامُ الطّـوال ، ولا يوقَدُ فى بَيتِهِ نار .

فَبَكى الخَليفَـةُ عُمَـرُ علـى حـالِ سَـعيد ، وطلـبَ أن

يُرسَلَ إليه أَلفُ دينار ، يَستَعينُ بها على قَضاءِ حاجاتِه ، وإصْلاحِ حالِه .

فعِندما رأى سَعيدٌ الأموالَ عِندَه ، وَلْوَلَ وقال : « إنّا لِلّهِ وإنّا إلَيهِ راجعون » .

فسَألتْه زَوجُه : ماذا أصابك ، أحَدَثَ ما يَضيرُ أَميرَ المُؤمِنين ؟ أحَدثَ مَكروهٌ لِلمُسلِمين ؟

فبادَرَها بقَولِه : دَخلتْ علَيَّ الدُّنيا لتُفسِدَ علَيَّ آخِرَتي ، وحَلَّتِ الفِتنَةُ الآنَ في بَيْتي .

قالَت زينَة : وماذا كانَ يَقْصِد ؟

قالَت أُمُّها : لَقد خافَ سَعيدُ بنُ عامِر ، أن تَشغَلَهُ مَفاتِنُ الدُّنيا ونَعيمُها ، عنِ الآخِرَةِ والاسْتِعدادِ لِيَومِ القِيامَة ، فكأنّما حَلَّت به مُصيبَة .

قالَتْ زينَة : مُصيبَة ! أأصْبَحَ المالُ مُصيبَة ؟

قالتْ أُمُّها : وسَرعانَ ما أخَذَ سَعيدٌ الدَّنانير ، وفرَّقَها على فُقَراءِ المُسلِمين .

قالَت فَرَح : ولَم يَترُكْ لنَفْسِهِ بَعضَها ؟

قالَتْ أُمُّها : ولا دِرهَمًا واحِدا .

* * *

وحدَثَ أن زارَ الخَليفَةُ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ الشّام ، وسأَلَ النّاسَ عن أَحْوالِهم وأحْوالِ أَميرِهم معَهُم . فأجْمَعوا كلُّهم عَلَى حُبِّهم لسَعيدِ بنِ عامِر ، إلاّ أنَّ بَعضَ المُتَذَمِّرينَ شكوا مِنهُ في أَرْبَعِ خِصال ، هي أنّه :

لا يَخرُجُ إلَينا حتّى يَتعالَى النّهار .

ولا يُجيبُ أحَدًا في اللَّيْل .

ولَه في الشَّهرِ يَومانِ لا يَخرُجُ فيهما إلَينا فلا نَراه .

والأَخيرَةُ أنَّهُ تَأخُذُه إغْماءَةٌ بينَ الحينِ والحين .

وطلبَ منه عُمَرُ بنُ الخَطّابِ أن يَردَّ على هذه الاتّهامات ، فردَّ عَليْها بقَوْله :

أمّا أنّه يَتأَخَّرُ في الخُروجِ إليهم صَباحا ، فَلأنّه لا خادِمَ له فكان يعاونُ أهلَ بيتِه في العَجينِ والخَبيز ، ثُمَّ يُصلّي الضُّحا ثمَّ يَخرُجُ إلَيهم .

أَمّا أنّه لا يُجيبُ أحدًا في اللّيل ، فذلك لأنّهُ خَصَّ اللّيلَ لِلعِبادَةِ والتّضَرُّعِ لِلّه .

أمّا قَولُهم إنّه لا يَخرُجُ إلَيهِمْ يومَيْن كلَّ شَهر ، فقَدْ ردَّ عَلَى اسْتِحياء أنّه لا يَملِكُ إلاّ ثوبًا واحِدا ، فيَغسِلُهُ ويَنتَظِرُ حتّى يَجفَّ لِيخرُجَ إليهم .

أمّا الإغْماءَة ، فبِسَبَبِ رُؤيَتِهِ مَشْهَدَ إعْدامِ خَبيبِ بن عَدِيّ ، وما لَقِيَه من تعذيب ، فيَخافُ أن يَنالَهُ عذابُ اللّه ، لأنّه كانَ يَومَها مِن الكُفّار .

قالَت زينَة : ألِهَذِهِ الدَّرجَةِ كانَ فَقيرا ؟

قالَت أُمُّها : ألم أَقُل لكِ يا زينَة ، أنَّه كانَ دائما حَريصًا أن يُحشَرَ يومَ القِيامَةِ معَ الفُقَراء ؟

* * *

ونَعودُ لِلخَليفَةِ عُمَرَ بنِ الخَطّاب ، ونَرَى فَرْحَتَهُ وسَعادَتَه لتَوفيقِهِ فى اخْتِيارِ سَعيدِ بنِ عامِرٍ ، والِيًا على الشّام ، فقال :

ـ الحَمدُ لِلّهِ الّذي لم يُخيِّب فِراسَتي .

وبعثَ إلَيه بألْفِ دينارٍ أُخْرَى ، لِيَستَعينَ بها على قَضاءِ حاجاتِه . ففَرِحَت زَوجُ سَعيد ، وطلَبَتْ مِنه شِراءَ بَعضِ المُؤَن ، واستِئجارَ خادِمٍ لِتُعاوِنَهم .

ولكنَّ سَعيدًا يَقولُ لَها : نَدفَعُ الألفَ دينارٍ إلَى من يَأتينا بِها ، ونَحنُ أحوَجُ ما نَكونُ إلَيها .

فتَسأل : وما ذاك ؟

قال : نُقرِضُها لِلّهِ قَرضًا حَسَنا .

وكانَ مَصيرُ الألفِ دينارٍ كَمصيرِ ما قَبلَها ، ووُزِّعَت علَى اليَتامَى والأَرامِلِ والمُحتاجين .

قـالَت فـرح : إنّهـا قِصَّـةُ رَجُـلٍ يَكـرَهُ المـال ويُحِـبُّ الفَقْر .

قالَت أُمُّها : كـانَ يَقـولُ دائِمـا : كـانَ لى أصْحـابٌ سَبَقونى إلى اللّه ، وما أُحِبُّ أن أنْحَرِفَ عـنْ طَرِيقِهِـم ، ولو كانتْ لِيَ الدُّنيا وما فيها .

* * *

وفى السَّنَةِ العِشرينَ من الهِجْـرَة ، لقِـيَ سَـعيدٌ رَبَّـه ، وهـو لا يَملِـكُ إلاّ قَلبًـا يَنبـضُ بالإيمـان ، وشَـوْقًا لِلِقـاءِ الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، ولِقـاءِ مـن سَـبَقوه مـن الصَّحابَةِ فى جَنَّةِ الخُلدِ بإذْنِ اللّه .

قالتْ فَرَح : يا لَلزُّهدِ والوَرَعِ والبَساطَة !

قالتْ أُمُّها : والآنَ بعدَ أن سَمِعْتُما قِصَّةَ سَعيدِ بنِ عامِرٍ ، أرجو أن تَتغَيَّرَ نَظرَتُكُما إلى سَيِّدَة ، فالفَقْرُ كما رأيتُما لا يَعيبُ صاحِبَه ، والأرْزاقُ بيَدِ اللّهِ تَعالى ، يَرزُقُ من يَشاء ، ويَمنَعُ عَمَّن يَشاء ، واسْتِمرارُ الحالِ منَ المُحال ، فمَن يَدرى بما تَأتى بهِ الأَيَّام ؟

قالَت زينة : آسِفَةُ يا أُمّى ، وأَعْتَقِدُ أنّى كُنتُ مُخطِئَةً فى حُكمى علَى سَيِّدَة ، فهى كَما قُلتِ عَنها بِنتٌ نَظيفَة مُهذَّبَة .

قالَتْ فَرَح : هَيا بنا يا زينة ، لنَلعبَ معَ صَديقاتِنا فى الحديقة ، حتّى يَعودَ أبونا من عَمَلِه .